المقتطف

الجزء السادس من المجلد الحادي والثلاثين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٦ — الموافق ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٢٤

سيناء والعقبة

مضى الاسبوع الاول من الشهر الماضي والحرب على قاب قوسين او ادنى وموقع الخلاف الخط الفاصل بين مصر والشام. لكن انفرجت الازمة حالاً كما اشتدّت حالاً وقد وفتها الصحف اليومية حقها من التفصيل فنقتصر على ذكر جغرافية البلاد التي عليها الخلاف وتاريخها الغابر ووصفها الحاضر لعلّ في ذلك فائدة للقراء

يتفرع البحر الاحمر من طرفهِ الشمالي الى فرعين او لسانين احدهما غربي ومدينة السويس في طرفهِ ويسمى خليج السويس والآخر شرقي وقلعة العقبة في طرفهِ ويسمى خليج العقبة والارض بينهما صخور وصحاري وهي الآن قاحلة قليلة السكان ولكنها لم تكن كذلك في غابر الازمان. وظهور سيناء في منتصفها مما يلي رأس المثلث الذي بين اللسانين وعلاقتهُ بتاريخ اليهود والنصارى اشهر من ان تذكر. وقد ذكرنا طرفاً من تاريخها منذ عشر سنوات في كلامنا على "ايلة والبتراء والانباط" وما بعض ما ذكرناهُ هناك

قال ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخهِ ان خالد بن الوليد قال لبعد المسيح اخبرني بما رأيت من الايام قال رأيت المرأة من الحيرة تضع مكتلها على رأسها ثم تخرج حتى تأتي الشام في قرىً متصلة وبساتين ملتفة وقد اصبحت اليوم خراباً. ثم تعزّى ابن خلدون عن ذلك بقولهِ ان الله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

اذا خرج السائح من مصر قاصداً الشام برًّا بطريق العقبة وجبال الشراة فاول مكان يبلغهُ من حدود الشام العقبة عند طرف اللسان الشرقي من لساني البحر الاحمر. هناك كانت مدينة ايلة وعلى مقربة منها كان مرفأ سفن سليمان الحكيم التي كانت تجلب لهُ البضائع من الهند وشرقي افريقية ذهباً وصندلاً وحجارة كريمة. امتلك بنو اسرائيل تلك المدينة في

ايام داود وتعاقب عليها ملوكهم وملوك ارام (الشام) الى ان تغلب عليها رصين ملك ارام قبل المسيح بنحو سبع مئة وخمسين سنة وبقيت فرضة لسفن الذاهبة الى بلاد الهند والآتية منها. وتنصر اهلها في بدء النصرانية وصارت كرسي اسقف وبقيت كذلك الى ان غزاها النبي محمد غزوتهُ الاخيرة الى تبوك فاتاهُ يوحنا بن رؤبة صاحب ايلة فصالحهُ على الجزية وكتب لهُ النبي كتاباً فبلغت جزيتهم ثلثمئة دينار ثم زاد فيها الخلفاء من بني اميَّة فلما كان عمر بن عبد العزيز لم يأخذ منهم غير ثلثمئة. ومن ثم غاب ذكر هذه المدينة فلم تعد تذكر في كتب التاريخ الاَّ نادراً. ويقال ان الصليبيين اخذوها سنة ١١١٦ للمسيح واستردها صلاح الدين الايوبي منهم سنة ١١٦٧. ثم اخذها رينلد شاتيلون سنة ١١٨٢. وذكرها ابو الفدا بعد ذلك فقال والقلزم وايلة على ذراعين او لسانين من البحر قد طمسا في البر الشمالي وصار بين اللسانين المذكورين للبر دخلة الى الجنوب في البحر وفي تلك الدخلة الطور وعلى طرف اللسان الشرقي ايلة وعلى طرف اللسان الغربي القلزم. ثم قال "وايلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زرع يسير وهي مدينة اليهود الذين جعل منهم القردة والخنازير وهي في زماننا برج وبهِ والٍ من مصر وليس بها مزدرع وكان لها قليعة في البحر فابطلت ونقل الوالي الى البرج في الساحل". ولم يبقَ الآن من هذه المدينة الاَّ الانقاض وليس العبرة بها بل بمرفإها الذي كان فرضة الشام الى الهند وجنوبي افريقية ومقرَّ تجارة واسعة النطاق كثيرة المكاسب جعلت الفضة والذهب في اورشليم مثل الحجارة كثرةً فانقطعت التجارة وخربت المدينة وردم المرفأ وليس في بلاد الشرق كلها من يسأل عن سبب ذلك"

والتفتنا الآن الى ما قالهُ ياقوت الحموي عن ايلة في معجمهِ الجغرافي فاذا خلاصتهُ "ان أيلة بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم وقيل في آخر الحجاز واول الشام... وقدم يوحنَّة بن رؤبة على النبي من ايلة وهو في تبوك فصالحهُ على الجزية وقرَّر على كل حالم بارضهِ في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار واشترط عليهم قرى من مرَّ بهم من المسلمين وكتب لهم كتاباً ان يحفظوا ويمنعوا فكان عمر بن عبد العزيز لا يزداد على اهل ايلة عن الثلاثمائة دينار شيئاً. وقد قال اميهة بن الجلاح يرثي ابنهُ

فما حبرزيٌّ من دنانير ايلةٍ بايدي الوشاة ناصعٌ يتأكَّلُ
باحسن منهُ يوم اصبح غادياً وتفنى فيهِ الحامُ المجلَّلُ

"وقال محمد بن الحسن المهلبي مدينة ايلة جليلة على لسان البحر الملح وبها يجتمع حجّ الفسطاط والشام. وخراج ايلة ووجوه الجبايات بها نحو ثلاثة آلاف دينار وينسب اليها جماعة من

الرواة منهم يونس بن يزيد الايلي صاحب الزهري توفي بصعيد مصر سنة ١٥٢ واسحق بن اسمعيل بن يعقوب الايلي مات بايلة سنة ٢٥٨ وحسان بن ابان بن عثمان الايلي وُلي قضاء دمياط وتوفي بها سنة ٣٢٢

ويؤخذ من ذلك كله ان مدينة ايلة التي قامت العقبة مقامها كانت فرضة بحرية عامرة منذ ثلاثة آلاف سنة وعظم شأنها في زمن الملك سليمان الحكيم ثم ضعفت رويداً رويداً حتى لم يبقَ فيها في بدء تاريخ الاسلام سوى ثلاثمائة بالغ او ثلاثة آلاف وكان اكثر اهلها حينئذٍ من اليهود فادعوا ان معهم كتاباً من النبي لكي لا يُنالوا بمكروه . ثم اشتهرت في الحروب الصليبية وضعف شأنها بعد ذلك حتى لم يبقَ بها في زمن ابي الفداء سوى برج به والٍ من مصر لكنها عادت فازدهت بعد ذلك وذكرت في القرن الخامس عشر كمدينة من المدائن الكبيرة وعادت فانحطت وليس بها الآن الاَّ قلعة حصينة لها اربعة ابراج على زواياها الاربع وهي في يد الحكومة العثمانية . ويمتدُّ الحد المتفق عليه بين مصر والاملاك العثمانية على ثلاثة اميال غربيها ويمتد من هناك شمالاً بغرب الى ان يصل الى عمودين نصبا في عهد اسمعيل باشا قرب رخ الى الشمال الشرقي من العريش كما ترى في الخريطة المقابلة

اما برية سيناء او شبه جزيرة سيناء فاكثرها قفار قاحلة وبينها اودية خصيبة ينبت فيها النخل والطرفاء وكثير من الاعشاب والانجم التي ترعاها الجمال ويقع فيها مطر غزير تنزع به الاودية وسكانها نحو ثلاثين الفاً من البدو . فاذا وجهت الحكومة المصرية عنايتها الى تعميرها كما وجهتها الى تعمير السودان لم يتعذَّر عليها ان تبني سدوداً لحفظ مياه الامطار وارواء الاودية بها فيكثر فيها الزرع والغرس ويلطف هواؤها وتغزر امطارها وتصير مصيفاً لاهالي هذا القطر وربما عاد الناس الى استخراج الذهب والنحاس منها كما كانوا يستخرجونهما قديماً

هذا من حيث الطرف الجنوبي الشرقي من طرفي الحد الفاصل بين مصر والشام اما الطرف الشمالي الغربي فقال فيه بدكر في دليله لسورية المطبوع سنة ١٨٩٨ ما ترجمتهُ

" من غزة الى العريش ١٣ ساعة ، فبعد ساعة وخمس دقائق تصل الى تل العجول قرب وادي غزة الذي يمتدُّ من عند حيرون وير بقرب بير سبع . وعلى ساعة الى الجنوب الشرقي من تل العجول بقرب تل الجمة خرائب امجرار وبعد ساعة وربع دير البلح (وهو دارم القديمة وهناك جامع الخضر قائم على خرائب كنيسة قديمة) ثم تصل بعد ساعة و ٣٧ دقيقة الى خان يونس وفيه جامع حسن البناء من عهد السلطان برقوق والى الجنوب من خان يونس حد الديار المصرية . وبعد ساعة و ١٧ دقيقة تصل الى تل رخ وبعد ساعتين ونصف الى الشيخ

زواد ويعده الى خربة البرج ثم الى وادي العريش وبعد ٣٠ دقيقة تصل القلعة والكورنتينا

"والعريش مدينة رينوكولورا القديمة وقرب الصهريج الذي في ساحة قلعتها ناووس مصري قديم عليه كتابات مصرية. ويقال ان ملكاً حبشياً من ملوك مصر بناها منفى للجناة وكانت كرسي اسقفية في اول عهد النصرانية ومات فيها بلدوين الاول ملك اورشليم سنة ١١١٨ ولا يزال فيها حجر يقال له حجر بردويل اي حجر بلدوين. واخذها نبوليون في ١٨ فبراير سنة ١٧٩٩ وفيها عقدت معاهدة العريش في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ التي بموجبها خرجت الجنود الفرنسوية من القطر المصري"

وقال ابو الفداء "وما هو داخل في حد مصر الجفار وهو المعروف برمل مصر وبه منازل للسفارة اشهرها واكبرها فطية ثم الورّادة وبهما سكان وتخيل والذي يحيط بالجفار بحر الروم من رفح الى بحيرة تنيس ومن بحيرة تنيس الى الفرما ومن الفرما الى تيه بني اسرائيل ومن تيه بني اسرائيل الى بحر الروم عند رفح من حيث ابتدأنا واما تيه بني اسرائيل (اي شبه جزيرة سينا) فيقال ان طوله اربعون فرسخا (١٢٠ ميلاً) وعرضه قريب من طوله وارضه صلبة وفيها رمال وبها عيون ردية الماء ويحيط به الجفار وحدود الفرما وحدود بيت المقدس. ومن الاماكن المشهورة بالجفار رفح وهي منزلة في طرف الجفار من جهة الشام وعلى مرحلة من غزة. والعريش وهي الآن منزلة على شط بحر الروم وبها آثار قديمة من الرخام وغيره وهي في الغرب والجنوب من رفح على مسيرة يوم. قال ابن مطرّف وسمي الجفار لان الدواب تجفر فيه اي تهلك من السير. قال ابن حوقل ان الجفار في ايام فرعون كانت معمورة بالقرى والمياه وعنها قال الله ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ولذلك سمي العريش عريشاً"

وكانت رفح مدينة عامرة على ما قاله المهلبي "فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق وبها والٍ وعلى ثلاثة اميال من رفح من جنب غزة شجر جميز مصطف من جانبي الطريق عن اليمين والشمال يتخالف شجرة متصلة اغصان بعضها ببعض مسيرة نحو ميلين وهناك منقطع رمل الجفار"

هذا ويبعد عن الاحتمال ان تبقى الحدود بين مصر والشام قفراً بلقعاً كما هي الآن فان ثلاثين سنة كفت لاعادة العمارة الى القطر المصري فتضاعف عدد سكانه وفاضت الخيرات عليهم. وثلاثون سنة تكفي لاعادة العمارة الى الشام اذا تولاه اناس يحسنون سياسته ويصلحون اموره فيتضاعف عدد سكانه وتفيض الخيرات عليهم وحينئذٍ تصل مصر بالشام بسكك الحديد ويصير كل قطر منهما متمماً للقطر الآخر